الحوار الإسلامي – المسيحي
نحو فهم أفضل

الأستاذ الدكتور/ محمد محمد أبوليلة(*)

مقدمة

الحمد للّه رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمدٍ النبي الأمي الكريم وسَلِّم تسليما كثيراً؛ وبعد فإن تجمعنا اليوم في هذه الندوة العالمية لإجراء حوار بيننا حول « **الفلسفة الإسلامية كمدخل للحوار بين الإسلام والغرب** » نحن أساتذة جامعات الأزهر. والقاهرة ورابطة الجامعات الإسلامية. ومركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي. وجامعة بريجهام يانج الأمريكية – له أهميته الكبرى. كما أنه يجيء في وقته المناسب.

هذه الندوة تعتبر مؤشرا واضحًا على رغبة المشاركين فيها، لإيجاد سبلٍ للتفاهم المتبادل لصالح شعوب العالم بأسره. ذلك العالمُ المتأزم الذي يعاني من وطأةِ كثيرٍ من المشكلات المعقدة والمتراكمة. مشكلة البطالة. ومشكلة الجريمة بأنواعها. تجارة المخدرات، والعنف، والإرهاب. والتفكك الأسري. والفقر. والمرض. والأمية؛ وفوق ذلك كله ضعف الوازع الديني.

**) أستاذ مقارنة الأديان وأستاذ الدراسات الإسلامية باللغة الإنجليزية جامعة الأزهر

وتخلخل منظومة القيم الدينية. يضاف إلى ذلك تلك الكوارث الطبيعية التي لا دخل للإنسان فيها كالقحط والجفاف والفيضانات والزلازل والبراكين. والتي يقف الإنسان حيالها عاجزًا.

لقد شُطِر عالَمُنا الواحدُ إلى شطرين: غربٌ غنيٌ متقدمٌ صناعيًا وتكنولوجيًا. يملك المال والسلاح والبرامج والخطط وآليات التنفيذ. وشرقٌ فقيرٌ مكبَّلٌ بالمشكلات. محاصرٌ بالأزمات والنكبات. فكيف إذن يستطيع هذا العالم أن ينعم بالأمن والسلام والاستقرار. أو يَمْضي قُدُمًا في سبيل تقدُّمه ورخائه. وكيف يمكنه أن يتغلب على مشكلاته. وعلى الصعاب التي تواجهه. وتُثْقِل كاهلَه. وتصيبه بالإحباط المعنوي؟..

إن من واجبنا نحن أساتذة الجامعات وعلماء الدين أن نعمل على التقريب بين الشعوب وعلى مد جسور الثقة بينهم. وإضاءة مشاعل الأمل على طريقهم. لأننا جميعًا ننتمي إلى أصل واحد. آدم وحواء عليهما السلام. وأما الاختلاف الكائن بيننا سواء في اللغة أو الجنس أو اللون أو في طريقة التفكير إنما هو اختلاف تنوع ينتج عنه التعارف والتآلف. وليس هو اختلافُ تضاد يُولِّد العداوة والبغضاء والتعالي والأنانية.

يقول اللّه تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ (الحجرات: ١٣) وفي قراءة لابن عباس: "**لتعرفوا أن** ..." ومعناها: أي "لتعرفوا الحق" فكأنه تعالى يقول: "يا أيها الناس أنتم سواء.

من حيث أنتم مخلوقون. وإنما جعلتم قبائل وشعوباً لتتعارفوا ولتعرفوا الحق. وأما الشرف والكرم فهو بتقوى الله تعالى وسلامة القلوب، وفي قراءة تفسيرية لابن مسعود (**لتعارفوا بينكم وخيركم عند الله أتقاكم**)[1].

عَنْ أَبِي نَضْرَةَ ﷺ حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ أَلاَ لاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلاَ لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ولا لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلا بِالتَّقْوَى"[2].

إن الاختلاف بين البشر آية من آيات الله في الكون وهو من صميم منهج الله تعالى في الخلق. يقول الله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ**﴾ (الروم: ٢٢).

﴿**وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ البقرة: ١٤٨.

﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾ هود: ١١٨-١١٩

(١) ابن كثير. مختصر التفسير ٣ /٣٦٧ وابن عطية – المحرر الوجيز ١٣ /٥١٥-٥١٦.
(٢) تفرد به أحمد بن حنبل في مسنده في كتاب مسند الأنصار . رقم: ٢٢٣٩١

إن الله تعالى قد نَوَّع في الخلق لحكمةٍ سامية ومصلحة ظاهرة. نَوَّع في خلق الإنسان والحيوان. وبين سائر أفراد الممالك الموجودة في هذا الكون وأعيانه. بل ونوَّع بين أعضاء الجسم الواحد. وبين أبناء الأسرة الواحدة. تمييزًا لكل شخص عن الآخر. وتكثيرًا للصفات والمؤهلات والاستعدادات والأفكار والمفاهيم والخبرات الإنسانية. وذلك كله لمصلحة الإنسان. وتحقيقًا لمنهج الله تعالى في التعارف بين البشر. وإظهارًا لعمل الله تعالى في الخلق وسلطانه على المخلوقين.

ويُعلمنا القرآن أن الله تعالى لا يحابي جنسًا على حساب جنس آخر. ولا يظلم شعبًا وينصف شعبًا آخر. بل إنه قد كرّم الناس جميعًا بحُكم الخلق. وطبقًا لقاعدة العدل الإلهي.

يقول تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾ (الإسراء: ٧٠).

وعلى الإنسان أن يحافظ على هذه الأفضلية التي منحه الله إياها. وذلك بالسير على منهج الله تعالى. والعمل وفق ما جاء به رسله صلوات الله عليهم أجمعين. ومن فضل الله أن جميع الأنبياء قد دَعَوا إلى منهج واحدٍ. في الأساس وفي الهدف. فقد دَعوا إلى التوحيد المجرد. وإلى عبادة الله وحده لا شريك له. وإلى فعل الخيرات وتجنب الشرور. وإلى الإحسان في العمل والإخلاص في النية. وإلى التعاون على البر والتقوى. لا على الإثم

والعدوان، ودعوا كذلك إلى التمسك بسائر القيم التي من شأنها أن تحافظ على حيوات الناس وأعراضهم وأنسابهم وممتلكاتهم وعلى حريتهم وكرامتهم الإنسانية.

إن الإنسان لا يمكن أن يشعر بالسعادة أو يحيا آمنًا مطمئنًا في هذه الدنيا بلا دين يقويه ويهديه، ولو أن الناس أمكنهم أن يعيشوا حياتهم اعتمادًا على عقولهم وحدها لاقتضت الحكمة الإلهية ألا يرسل الله إليهم رسلا أو ينزل عليهم كتبًا، ولما ألزمنا الله بالعمل بتعاليم الدين، ولما رتب الحساب والعقاب على ذلك. ولما خلق الله الإنسان أصلا ميالا بطبيعته وفطرته إلى الدين.

إننا قد يمكننا أن نعيش بلا آداب أو فنون أو تكنولوجيا؛ ولكننا لا يمكننا البتة أن نحيا بلا دين أو نعيش بلا قيم روحية.

منهج الإسلام في المحافظة على نظام العالم وأمنه وسلامته

قدم الإسلام عدة أحكامٍ أوجب على أتباعه العمل بها لضمان تحقيق السعادة في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة. منها:

١- أن الناس جميعًا متساوون من حيث مبدأ الخلق. مختلفون فقط في أشكالهم وألوانهم ولغاتهم. وفي مؤهلاتهم وخصائصهم الوراثية. وأنهم جميعًا مُلزمون بالتمسك بمنهج الله. وبتحقيق القيم الدينية في واقع حياتهم؛ والإسلام كما ذكرنا. لا يقر التمييز العنصري أو الطبقي. ولا يبنى الأفضلية بين البشر إلا على أساس التقوى والعمل الصالح. وذلك حتى تستقر الحقوق. وتوزع المصالح على أساسٍ من العدل والأهلية. لا بدوافع الأنانية والمحاباة والاستعلاء العنصري والقهر والتسلط.

٢- أن حياة الإنسان يجب أن تُصان ضد أي عدوان فلا يُقْتل الإنسان ظلمًا. ولا تُمْتهن كرامته. أو تُسلب حريتُه أو يُعتدي على عرضه أو أرضه أو على أي حق له بأي شكل من الأشكال. ولذلك فقد حَرَّم الإسلامُ أن يَقتل الإنسانُ نفسَه أو ولدَه أو يقتل غيرَه. وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿**لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلا بالْحَقِّ**﴾ (الأنعام: ١٥١). (الإسراء: ٣٣) ﴿**ولا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وإيَّاكُمْ إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خطْئاً كَبيراً**﴾(الإسراء: ٣١). ﴿**مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إسْرَائِيلَ**

أَنَّـهُ مَـن قَـتَلَ نَفْسـاً بِغَـيْرِ نَفْـسٍ أَوْ فَسَـادٍ فِـي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ (المائدة: ٣٢).

وعـن عـدم الإكـراه في الديـن يقول تعالى: **﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ... ﴾** البقرة: ٢٥٦

ويكفـي لإبـراز أهمـية هـذا المبدأ القرآني في احترام الحرية الإنسانية أن هذه الآية قد ذُكِرت مباشرةً بعد أعظمِ آيةٍ في القرآن. وهي آية الكرسي.

جـاء في تعلـيق الإمـام الرازي على قوله تعالى: **﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾** أن الله تعـالى لم يَـبْنِ مسـألةَ العقـيدة على الإكراه أو الجبر والإلزام. وإنما على الإرادة الحرة والقدرة على الاختيار. فإنه ليس من الشرع أن يُجْبر من يـرفض الدين، ويعاند الحق في هذا العالم على اعتناق الدين؛ على أن هذا العـالم يجري الأمر فيه على الابتلاء والفتنة، وفَرْض الدين على شخصٍ ما يعـني حِـرمانه مـن حـرية الاختـيار الـذي يترتب عليه الحساب والثواب والعقاب.

وهـنا ينـبغي أن نعـرف أن الجهـاد الـذي جعله الإسلام فريضةً ملزمةً على المسلمين. إنما شُرِع للدفاع عن الأمة والملة، ولإزالة العقبات من طريق الدعـوة الـتي هـي واجـب أيضـاً عـلى المسلمين. فالإسلام ليس دينًا فقط. وإنمـا هـو ديـنٌ ودولـة. والإسـلام لم يُنْشـر بالسـيف، وإنمـا نُشـر بالقرآن وبأخلاق المسلمين في أغلب الأحوال. وإذا كان المسلمون قد رفعوا السيف.

فقد رفعوا سيفَ الرحمة لا سيف العنف والانتقام؛ وإلا فكيف يُتَصور أن يفرضَ محمدٌ ﷺ دين الله على الناس تحت تهديد السيف. وأين كانت يا تُرى تلك القوة المادية والروحية التي تحمل هذا السيف؟.. وكيف انتشر الإسلام في القارات المختلفة بعد وفاة صاحب الدعوة بقليل. وبسرعة لم تحدث في تاريخ الأديان ولا في التاريخ الإنساني العام. ولا يزال الإسلام ينتشر إلى اليوم في العالم كله دون جيش أو سلاح.

٣- ينبغي علينا أيضًا عندما نتناول عقيدة الجهاد في الإسلام أو نُقَوِّمها على أساسٍ سليم أن نستحضر في أذهاننا أن الجهاد يبدأ أولاً من جهاد النفس. ثم جهاد العدو بطرق أخرى كثيرة قبل اللجوء إلى القوة. يقول تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضلَّ عَن سَبِيلِهِ وهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ (النحل: ١٢٥). ويقول تعالى: ﴿**ولا تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾...العنكبوت: ٤٦) ويقول تعالى: ﴿**إِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاغُ وعَلَيْنَا الحِسَابُ**﴾ (الرعد: ٤٠) ويقول تعالى: ﴿**وجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً**﴾ (الفرقان: ٥٢) ويقول تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ**﴾إبراهيم: ١).

ومعنى ذلك أن الكتاب المُنَزَّل وليس السيف المُصلَّت هو الذي يُخرج الناس من الظلمات إلى النور. وإلى الحياة الأفضل. وإذن فالسلام هو الأصل في قاعدة التشريع الإسلامي. أما الحرب فهي عرضٌ طارئ. ينبغي

مواجهتُه بحكمة: نعم إن الحرب مشروعةٌ في الإسلام؛ لكن لسببٍ مشروعٍ، ولهدفٍ مشروعٍ، وبطريقة أيضاً مشروعة؛ وسيرة النبي ﷺ تؤكد على ذلك. فقد تجنب النبي الصدام بأهل مكة بعد بعثته، ولم يرفع في وجههم سيفًا، ولم يَعنُف بهم. ولم يَستَعِن عليهم بالأشرار، ولا استَحَل في يومٍ دماءَهم أو أموالَهم أو أعراضَهم. بل كان ﷺمثالاً للصدق والأمانة بينهم. وهم الذين سَموه "**الصادق الوعد الأمين**."

لجأ النبي ﷺ إلى الطائف تجنبًا للصدام مع قريش وتَحمل هو وأصحابُه. وزوجُه خديجة. وعمُه أبو طالب الحصارَ الاقتصادي والاجتماعي الظالِمَ. الذي فرضَتْه عليه قريش. قُرابة الثلاث سنوات؛ ولم يأمر النبيُّ ﷺ أحدًا باللجوء إلى القوة لحماية نفسه؛ بل وجَّه بعضَ أصحابه إلى الحبشة. ليعيشوا كمهاجرين في كنفِ ملِكٍ نصراني عادل، شهد له رسول الله ﷺ بالفضل والعدل؛ ثم هاجر النبيﷺ إلى المدينة سرًا تجنبًا للصدام أيضًا. فابتدأ هناك عهدَه بالمؤاخاة. والتمكين للأمن والسلام، فآخى بين المهاجرين والأنصار، وكتب معاهدةَ سلامٍ بينه وبين اليهود تقرَّرَت لهم فيها حقوقُ المواطنة كاملة؛ وبهذا تأسست أولُ دولة في الإسلام على العدل والتسامح والتعايش السلمي.

ولا يفوتنا أن نلفت إلى أن النبيﷺ كان بطبعه وبمقتضى اختيار الله تعالى له رحيمًا عادلاً. محبًا للناس. رفيقًا بهم، يُفَضِّل الأيسرَ والأصلحَ للناس من الأمور عند كل اختيار. ولم يُعرف عنه البتة قَبلَ البعثة. ولا

بعدها أنه كان يميل إلى العدوان والانتقام. عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: مَا خُيِّرَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إلا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَأْثَمْ فَإِذَا كَانَ الإِثْمُ كَانَ أَبْعَدَهُمَا مِنْهُ وَاللَّهِ مَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ يُؤْتَى إِلَيْهِ قَطُّ حَتَّى تُنْتَهَكَ حُرُمَاتُ اللَّهِ فَيَنْتَقِمُ لِلَّهِ[1].

٤- شرع الإسلامُ المباهلةَ. والمباهلةُ هي الدعاء إلى الله والتضرع إليه من أجل إظهار الحق. وهي مشتقة من أبهلت فلانًا أي تركته وإرادته يختار ما يريده[2].

يقول تعالى: ﴿**الحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ المُمْتَرِينَ* فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وأَبْنَاءَكُمْ ونِسَاءَنَا ونِسَاءَكُمْ وأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الكَاذِبِينَ**﴾ (آل عمران: ٦٠، ٦١).

ودعاء النبي ﷺ للنساء والأبناء للملاعنة أشدُّ تحريكاً للنفوس. وتطويعاً للقلوب. للنزول على الحق. وترك العناد الذي يؤدي إلى الهلاك والفساد. كما أنه أدْعى لتنزل رحمة الله على الصالحين. أو حلول غضبه على المبطلين[3].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب الحدود رقم ٦٢٨٨،

(٢) الراغب الأصفهاني. مفردات ألفاظ القرآن - ص١٤٩

(٣) ابن عطية. المحرر الوجيز. ج٣ ص١٤٩-١٥٣

وقد دعا النبيُّ ﷺ وفدَ نصارى نجران إلى المباهلة في العام العاشر من الهجرة، فامتنعوا؛ وهكذا فإن المباهلةَ إحدى طرق الدعوة لعرض الإسلام على الآخرين.

٥- وفي حالة ما إذا تعذر الوصولُ إلى الحق عن طريق المباهلة، فإن الإسلام يلجأ عندئذ إلى دعوة أهل الكتاب إلى التمسك بالثوابت المشتركة بين أهل الديانتين تَجنباً للصدام أيضًا، يقول تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إلا اللَّهَ ولا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ (آل عمران: ٦٤).

و"**الكلمةُ السواءُ**" معناها كلمة العدل والحق، الذي يتساوى فيه الناس جميعًا؛ ويفسرها ابن عطية بمعنى "قصد استواء الحال"[1].

أظهر رسولنا الكريم ﷺ وكذلك أصحابه وخلفاؤه تعاطفًا كبيرًا نحو أهل الكتاب: ونحو النصارى بصفة خاصة، فقد سَمّى القرآنُ اليهودَ والنصارى بـ "**أهل الكتاب**". يعني أهل العلم والوحي السابق باعتبار الأصل، وسَمّى اليهودَ بـ "**أهل التوراة**". وبـ "**أمة موسى**". والنصارى بـ "**أهل الإنجيل**" (المائدة: ٤٧).

(١) المصدر السابق. ج٣ ص٥٥-٥٦

وأثنى الله تعالى على بعض قساوستهم ورهبانهم وكذلك على القائمين بالحق منهم (المائدة: ٨٢؛ الحديد: ٢٧، آل عمران: ١١٣)، وأَطْلق الرسول ﷺ على اليهود والنصارى معًا عبارة "**أهل الذمة**" أي مَن لهم العهد والأمان من الله تعالى ورسوله. ومعنى "أَذَمّه" أي "أجاره"؛ ويلحق المجوسُ (أهل فارس) باليهود والنصارى في المعاملات. قال ﷺ عن المجوس: "**سُنُّوا بهم سنةَ أهلِ الكتاب**"[1].

وقد عامل الفاتحون المسلمون في الهند البوذيين معاملةَ أهل الكتاب قياسًا على حديث النبيﷺ في إلحاق المجوس بهم.

كما أعطى الإسلامُ لأهل الذمة حقَّ المواطنة كاملا. وأدخلهم ضمن التشريعات الإسلامية العامة. مع إعطائهم كذلك الحق في أن تكون لهم مَحاكمُهم الخاصة؛ ولم يعامِلهم كأقليةٍ تعيشُ على هامش المجتمع، وتُصارع من أجل البقاء على الكيان، والهوية والخصوصية؛ ومن المُهم أن نَعرف أن لفظة "**أقلية**" لم تعرفها القواميس العربية، إلا بعد احتكاك الشعوب العربية بالغرب في العصر الحديث.

(١) الشوكاني. نيل الأوطار. ج٨ ص٥٦؛ وابن منظور – لسان العرب ج٢ ص٢٢٢، زينب رفعت– دراسات في مقارنة الأديان.

وسائل تعزيز العلاقات بين المسلمين وأهل الكتاب

ولـتعزيز العلاقات بين المسلمين وأهل الذمة، أباح الإسلامُ للمسلم نكاحَ الكتابية (اليهودية والنصرانية) مع إعطائها الحق في البقاء على دينها. كما أبـاح للمسـلمين أكـلَ أطعمة أهل الكتاب. لا ما حرَّم الله عليهم منها. وفي ذلك تأسيسٌ للعَلاقات الاجتماعية وتعزيز لها.

يقول تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وطَعَامُ الَذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لَّكُم**﴾...المائدة: ٥

ولقـد ضـرب الـنبيُّ ﷺ المـثلَ في ذلـك. فـأكَل مـن طعامِ أهل الكتاب: واشترط عمرُ بن الخطاب على نصارى سوريا أن يقدموا المأوى للمسلمين إذا مَـرُّوا بديـارهم؛ ولمـا كان ﷺ في سورية، أعدَّ بعضُ النصارى طعامًا، ودعوه هـو ومَـن معـه لتناوله داخل الكنيسة، فأرسل عمرُ عَليًّا ﷺ ما ومعه جماعة مـن المسـلمين إلى الكنيسة لتناول الطعام. ولم يشأ هو أن يَدخلها لأمرٍ رآه؛ ولما دخل عَليُّ بن أبي طالب ﷺ الكنيسةَ جعل ينظر إلى الصور والأيقونات المبـثوثة فـيها، ويقـول: "**مـا عَـلى أمـيرِ المؤمـنين من بأس، لو جاء فأكل معنا**" أو نحو ذلك.

وعندما كان عُمر ﷺ في الجابية استعار ثيابًا من نصراني فلبسها حتى غسلوا له ملابسه ،وتوضأ ﷺ من إناءٍ تملكه سيدةٌ نصرانية ، وكذلك صلّى سلمانُ الفارسي وأبو الدرداء في بيت لسيدة نصرانية[1].

وقد أوصى عمر بن الخطاب وهو يجود بحياته على إثر طعنةِ رجل من أهل الذمة هو أبو لؤلؤة المجوسي قائلاً: "أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيراً. أن يوفي بعهدهم. وأن يقاتل من ورائهم. وألا يكلفهم فوق طاقتهم"[2].

وأباح الإسلام أن يخالط المسلمون أهل الكتاب. وأن يُهنئوهم ويُواسوهم ويتهادوا فيما بينهم. وألا يتعصبوا عليهم أو يزدروا بهم أو يعتزلوهم. ما لم يكونوا محاربين. يقول الله تعالى: ﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ الممتحنة: ٨

(١) ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ورسالة في أمراض القلوب والرياض دار طيبة ١٤٠٣ ص ١٥٧

(٢) أخرجه البخاري والبيهقي في السنن ٢٠٦/٩، باب الوصايا بأهل الكتاب، ويحيى بن آدم في كتاب الخراج ص٧٤

وضع أهل الذمة في التشريع الإسلامي

الناس جميعًا أمام شرع الله سواء، فلم تُفرق الشريعة الإسلامية بين مسلم وغير مسلم في مجال المعاملات؛ وبالذات فيما يختص بالجريمة والعقوبات المترتبة عليها. والقاعدة الذهبية قررها الإسلام في التعامل مع غير المجتمع الإسلامي هي "**لهم ما لنا وعليهم ما علينا.**"

ويقول تعالى في شأن المعاملات التجارية ﴿ **ولا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وتُدْلُوا بِهَا إِلَى الحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ البقرة: ١٨٨

فهذا النهي عن أكل أموال الناس بالباطل عام يشمل المسلمين وغير المسلمين؛ وكذلك حرَّم الإسلام دمَ اليهودي والمسيحي على المسلم ما لم يكن محاربًا أو معتديًا؛ فإذا قتلَ مسلمٌ ذميًّا، قُتِل به قصاصًا، أو أُلزم بالدية. إلا إذا عفا عنه أهلُ القتيل، كما هو الحال بالنسبة للقاتل المسلم تمامًا. وإذا كَسَرَ مسلمٌ عظمَ ذميٍّ مَيِّتٍ كُسِر عظمُه؛ وإذا نَبَشَ قبرَه، عُوقب على ذلك. وحرَّم الإسلام كذلك الخوضَ في عِرض أهل الذمة. فلا يسب المسلمُ ذميًا أو يُقبحه أو يغتابه أو يلمزه، أو يقلل من شأنه. كما حَرَّم ذلك عليه بالنسبة لأخيه المسلم تمامًا. فالمسلم كما يُعَرِّفه النبي ﷺ هو "**من سلم**

المسلمون من لسانه ويده"[1] وفي رواية "**من سلم الناس من لسانه ويده**"[2].

وأخرج البيهقي من حديث عبد الرحمن بن اليماني أن رسول الله ﷺ قتل مسلمًا بمعاهد (أي ذمي) وقال: "**أنا أكرم من وفى بذمته**". وجاء في حديث لرسول الله ﷺ بشأن القصاص "**والنفس بالنفس**" هكذا بلفظ العموم. ومعنى ذلك أن المسلم يُقتل إذا قَتل الكافرَ تعديًا[3].

وقد ورد أن عَلِيًّا ﷺ همّ بقتل مسلمٍ قَتَل ذميًا. ولكنَّ أهلَ القتيل عَفوا عن القاتل على اتفاق بينهم. ولما تأكد علي أن أهل القتيل لم يفعلوا ذلك تحت وطأة التهديد. قال علي ﷺ لأخي القتيل: "**لعلك تعرف أن مَن أعطيناه عهدنا، فَدَمُه كدمنا وديته كديتنا**"[4]. وقد فعل عمرُ ﷺ مثلَ ذلك في قضية أخرى مماثلة[5].

هذا هو الموقف العام للإسلام من أهل الذمة. موقف ثابت بثبات القرآن. وباق ببقاء سنة النبي ﷺ فهو موقف تعبدي وليس موقفاً مدنياً فحسب. لا تزعزعه الأهواء. ولا تتهدده النظمُ المتغيرةُ. ولذلك فإن وضع الذميين ظل هكذا منذ عهد الرسول ﷺ وإلى اليوم. لم يطرأ عليه أي تغييرٌ

(١) رواه البخاري ومسلم في كتاب الإيمان
(٢) رواية النسائي في كتاب الإيمان وشرائعه /٤٩٠٩
(٣) الشوكاني: نيل الأوطار. ج٧ ص ٦-١٠.
(٤) البيهقي في السنن الكبرى
(٥) نيل الأوطار ج٧ ص١١-١٢ والجصاص. أحكام القرآن ج١ ص١٤١

يُذكر، مهما كان شكلُ الحكم في الدولة المسلمة؛ والأمر الذي يلاحظ من دراسة تاريخ أهل الذمة في المجتمع الإسلامي أنهم ظلوا محتفظين بالامتيازات التي منحها لهم الإسلام في كل العصور. لم يختلف وضعهم من عصر إلى عصر إلا اختلافًا يسيرًا. اختلافًا في الدرجة وليس في النوع.

وإذا كان الذميون قد اعترضَتْهم أو اعترضَتْ بعضَهم بعضُ المشكلات في مرحلةٍ ما من مراحل التاريخ الإسلامي. فإن هذا ينبغي أن يُحمل على فعل السياسة لا على فعل الدين، وكذلك على موقف أهل الذمة أنفسهم؛ فقد جاء أن الخليفة العباسي المتوكلُ (قُتِل ٢٤٧ هـ) أمرَ بتخصيص أجزاء من الكنائس الكبرى لصلاة المسلمين لأسبابٍ عملية.

ولقد كانت أيام المتوكل كما يصفها المسعودي: "في حسها ونضارتها ورفاهية العيش بها. وحمد الخاص والعام لها. ورضاهم عنها. أيام سراء، لا ضرّاء؛ وكانت خلافتُه أحسنَ من أمن السبيل ورخص السعر، وأماني الحب وأيام الشباب"[1].

ولظروف تخص أمن الخلافة. وللقضاء على الفتن أمر المتوكلُ العلماءَ بترك النظر والمباحثة والجدال. وأمر الناسَ بالتسليم والتقليد، كما أمر شيوخَ المحدثين بتدريس الحديث وإظهار السنة والجماعة.

(١) مروج الذهب ج٤ ص ١٢٢

وقد وُصِف المتوكلُ بأنه كان رفيقًا بالناس ويعاقب من يضطهدهم[1].

ويوجب الإسلام على رأس الدولة المسلمة أن يمد أهل الذمة باحتياجاتهم. ويوفر لهم ضرورات العيش. وأن يتفقد أحوالهم[2].

ويباح للمسلم شرعًا أن يوصي لأهل الذمة من ماله الخاص. وأن يُوقف عليهم. وقد أوصى صلاح الدين الأيوبي بأن يوزَّعَ مالُه بعد وفاته على فقراء المسلمين وفقراء النصارى.

وكان بعض التابعين يعطون جزءًا من صدقة الفطر لرهبان النصارى. ولا يرون في ذلك حرجاً شرعياً. وذهب بعضهم كعكرمة وابن سيرين والزهري إلى جواز إعطائهم من الزكاة. وروى ابن أبي شيبة عن جابر بن زيد أنه سئل عن الصدقة فيمن توضع؟.. فقال: "في أهل ملتكم من المسلمين. وفي أهل ذمتكم"[3].

ولقد أفاض ولترسكوت في قصة الطلسم في ذكر فضائل صلاح الدين ودماثة خلقه مع الصليبيين الذين اتسموا بالفظاظة وقلة الثقافة. كما وصفهم الفارس المسلم أسامة بن منقذ[4].

---

(١) المصدر نفسه ص ٨٨

(٢) ابن حزم الأندلسي – المحلي ج٨ ص٧٥

(٣) المصدر السابق ١١٧/٥

(٤) كتاب الاعتبار – ص ٢٣٢ وقد ترجم فيليب حتى هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية ونشره في برانستون ١٩٣٠م

وقد لاحظ غليوم الصوري مستشار ليودوين الرابع، وهو فرنسي من مواليد فلسطين إعجابه الشديد بأخلاق المسلمين في التعامل مع غير المسلمين.

ووصف الرحالةُ الغربيون المسلمين بأنهم "كرام وظرفاء، وروحيين قنوعين. ويؤثرون حياة الآخرة على الحياة الدنيا"[1]. وعلى الرغم من إنصاف هؤلاء الرحالة فإن المسلمين يؤثرون الحياتين معاً، ويعملون للدنيا كما يعملون للآخرة .

ولقد كان المسلمون والنصارى يحاربون معًا وفي خندق واحد ضد الصليبيين إخوانهم في الدين: لأنهم رأوا فيهم مستعمرين لوطنهم تحت ستار الدين.

وكان الصليبيون لا يحترمون نصارى العرب، بل كانوا يعتبرونهم جواسيس لصالح المسلمين، ولم يندمجوا البتة معهم أو يشركوهم في احتفالات دينية.

وبالنسبة لواجب الدولة الإسلامية تجاه أهل الذمة فنضيف أن الإمام أبا بكر الكاساني من فقهاء الأحناف (ت ٥٨٧ هـ –١١٩١م) يقول: "إن الذميَّ مواطنٌ في المجتمع المسلم". ويذهب فقيه مصر الليث بن سعد (ت

(١) غليوم – حوادث ما وراء البحار ١١٨٤

١٩٥ هـ -٨١٠م) إلى أنه من واجب الدولة الإسلامية أن تفتدي الأسير الذمي من بيت مال المسلمين.

ويذهب أبو بكر محمد السرَخسي (٤٩٠هـ/ ١١٩٥م) إلى أبعد من ذلك فيقول: "إذا جاء أحد من غير المسلمين لاجئًا إلى ديار الإسلام، وطلب الأمان لا يُسَلَّم إلى بلده. حتى ولو هُدِّدَت البلدُ التي أعطته الأمانَ بالحرب. كما لا ينبغي تسليمه في عملية تبادل أسرى (إذا كان في هذا تهديد لحياته). وإذا أحضر هذا اللاجئُ معه مالاً من بلده، لا ينبغي إرهاقه بالضرائب. حتى لا ينفد ما معه من مال"[1].

لقد طُبقت تعاليمُ الإسلام الخاصة بأهل الذمة عليهم في المجتمع الإسلامي في جميع العصور. باختلاف يسير بين عصر وعصر تبعًا للظروف والأحوال المختلفة التي شملت جميع أبناء الوطن الواحد كما أشرنا إليه آنفا.

استطاع الذميون في ظل الإسلام أن يحافظوا على هويتهم الدينية. وأن يمارسوا شعائرَهم وطقوسَهم في حرية. ولم يعمل الإسلام على تذويبهم في المجتمع الإسلامي البتة. وكان لغير المسلمين الحق في أن يدافعوا عن دينهم ويجادلوا المسلمين عنه. بل لقد ألف بعضُهم كتبًا ورسائل في الهجوم على الإسلام. لا يزال بعضها موجودًا إلى اليوم. على سبيل المثال "كتابات

---

(١) كتاب المبسوط ج٣ ص٣٠٠

يوحنا الدمشقي"، و"محاورة البطريارك السرياني تيموثي" و"ابن النغزيلة اليهودي" الذي رد عليه ابن حزم الأندلسي[1].

(١) انظر:
N.A Newman, & the early Christian Muslim dialogue – interdisciplinary political research institute, halfiel, Pennsylvania, 1993.

الجـزية

الجـزية هي قدر من المال يؤخذ من أهل الذمة مقابل حمايتهم وتمتعهم بحق المواطنة. وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَن يَدٍ وهُمْ صَاغِرُونَ**﴾ التوبة: ٢٩

ومعنى: "**يعطونها عن يد**" يعني أن يكونوا قادرين على أدائها مالكين لهـا. وإلا سـقطت عـنهم. ومعـنى "**هـم صـاغرون**" أي طـائعون راضـون بأدائها. وكلمة "**صاغرون**" هنا تعطي معنى الإلزام لهم لأنها فريضة فُرضت علـيهم مـن ديـنٍ غـيرِ الدِّيـن الذي يعتقدونه، مما قد تثير في النفوس بعض الأنفـة فـلا يؤدونهـا طواعـية ولا يقـدِّرون الحكمـة الـتي من ورائها. وكلمة "**صاغرون**" لا تعني التحقير من أهل الذمة أو التقليل من شأنهم. وقد فرض الله تعـالى الجـزية عـلى أهـل الذمـة. كمـا فرض الزكاة على أهل الإسلام لمصـلحة الفقـراء وأصـحاب الحاجات ولإحياء الموات (أي الأرض المجدبة) ولإدارة شئون البلاد وللدفاع عن الوطن وحماية الأمة .

أمـا إذا لم توفـر الدولةُ الإسلامية الحمايةَ لأهل الذمة فإنه لا جزية لها علـيهم. وفي حالـةِ إذا مـا حُصِّـلت الجـزيةُ مـنهم. وعجـزت الدولـة عـن حمايتهم. وجب ردُّها إليهم. ومَن انْخَرط من أهل الذمة في سلك الجندية. وشارك في الدفاع عن الوطن فلا جزية عليه، ولا جزية على فقير أهل الذمة أو مُقعدهم أو عاطلهم. ولا على نسائهم وأطفالهم. ولا على رجال الدين ولا

على المنقطعين للعبادة منهم؛ بل إنه من حق المحتاج من أهل الذمة، أن يأخذ من بيت مال المسلمين ما يكفيه ويغنيه عن السؤال.

ومن الجدير بالذكر أن نعرف أن قيمة الجزية على كل فرد قادر كانت تتراوح ما بين دينار إلى أربعة دنانير بحسب الحالة المادية للذمي؛ على أن من عجز منهم عن أدائها في وقتها، لا يُطالب بها بعد ذلك. وليس من حق الحاكم المسلم أن يَشقَّ على أهل الذمة فيعاقبهم بالحبس أو بالضرب، بسبب العجز عن أداء الجزية أو حتى التهرب منها.

إن الجزية وكذلك سائر النظام المالي الذي فرضه الإسلام على أهل الذمة كان عملا إداريًا تنظيميًا مُقَنناً في إطار القيم الإسلامية الثابتة وهو نظام يُحسَبُ للإسلام لا عَليه[1].

(١) الشوكاني – نيل الأوطار ج٨ ص ٥٨ وما بعدها، وأبو الحسن البلاذري فتوح البلدان ص ١٤٣، وأبو يوسف كتاب الخراج ص ٢٤٥ وما بعدها

الإسلام ودُورُ العبادة غير الإسلامية

أعطت الشريعة الإسلامية لغير المسلمين حريةَ العبادة. كما حافظت على دور العبادة الخاصة بهم على الرغم مما قد احتوى عليه بعضها من صورٍ وأيقونات وتماثيلَ لا يُقرّها الإسلامُ. فلم يتعرض لها المسلمون بهدمٍ أو تشويهٍ أو مصادرةٍ. ولم تُحَوَّل كنيسةٌ أو معبدٌ في تاريخ الإسلام إلى أي صفةٍ مخالفةٍ كمتحف أو إسطبل أو ملهى. أو غير ذلك. كما حدث بالنسبة لديانات أخرى. بل كانت الكنائس والمعابد تُفتح بالليل والنهار للعبادة وللاحتفالات الدينية. وللقيام بواجب الرعاية المادية والروحية لرعاياها. وكانت الكنائس تدُق الأجراس بأمرٍ من الولاة ولا تُمْنع إلا في أوقات صلوات المسلمين. وبالذات أثناء صلاة الجمعة[1].

وعندما دخل عمرو بن العاص مصرَ أحضر بنيامين بطريارك الإسكندرية. وأجلسه على كرسي الكرازة المرقسية بعد غيابٍ دام ثلاث عشرة سنة. ومن قبلُ رفض عمرُ بن الخطاب ﷺ أن يُصلي في كنيسة القيامة عندما زار فلسطين مخافةَ أن يدَّعي جهلةُ المسلمين أنها لهم بحجة أن الخليفة عمرﷺ صلَّى فيها.

وعندما دخل المنصور بن أبي عامر (في أواخر القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي) مدينة سنتيجو الأسبانية. ووصل إلى مقبرة القديس جيمس

---

[1] راجع ج ٣ ص ٣٠٠، حقوق أهل الذمة، ص ٧٤

أقام حرسًا خاصًا عليها لحمايتها من أي اعتداء[1].

وفي هذه القرينة نشير إلى ما قاله ميخائيل الأكبر بطريارك الكنيسة اليعقوبية بأنطاكية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر بشأن الاعتداء الروماني على نصارى الشرق يقول: "..وهذا هو السبب في أن إله الانتقام الذي تفرد بالقوة والجبروت، والذي يُبدل دولةَ البشر كما يشاء، فيؤتيها من يشاء، أرسل أبناءَ إسماعيل (العرب) من بلاد الجنوب ليخلصُنا على أيديهم من قبضة الروم الذين لجأوا إلى القوة. فنهبوا كنائسنا، وسلبوا ديارنا في سائر البلاد. وأنزلوا بنا العقاب من غير شفقة ولا رحمة؛ ولم يكن كسبًا هينًا أن نتخلص من قوة الروم وأذاهم وحنقهم وتحمسهم العنيف ضدنا. وأن نجد أنفسنا في أمن وسلام."

أما ما سجله التاريخ من أن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله كان قد أمر بهدم دير كنيسة القدس (٤١١ هـ / ١٠٢٠م) وكذلك جميع الكنائس المصرية، كما أوجب على اليهود والنصارى أن يلتزموا بزي معين تمييزًا لهم عن المسلمين. فإن التاريخ قد سجل أيضًا أنه قد عاد فأصدر أمرًا ببناء الكنائس التي هدمت. وترميم الكنائس الآيلة للسقوط على أنه ينبغي أن نعرف أن الحاكم بأمر الله كان غريب الأطوار اتسم حكمه بالقسوة على المسلمين وأهل الذمة سواءً بسواء. وأن تصرفه ذاك لم يكن من منطلق إسلامي.

(١) ابن عذاري المراكسي – البيان ليدن مريل ١٩٥١ ص ٣٩٤

مظاهر الوحدة الوطنية

ذكرنا فيما سبق أن النبيَّ ﷺ قد زار أهل الكتاب. وأنه لما رأى جنازة لأحد موتى اليهود قد مرت به. وقف لها. فقيل له: هذا يهوديٌّ يا رسول الله. فقال: "**أليست نفسًا**"[1].ولما ماتت أم الحارث بن أبي ربيعة وهي نصرانية فشيعها الصحابة رضوان الله عليهم[2]. وهكذا اقتدى الصحابة رضي الله عنهم بأخلاق الرسول ﷺ وساروا على نهجه في معاملة أهل الكتاب.

وفي البلاد الإسلامية التي يوجد بها يهود أو نصارى كان كل فريق يتعبد في كنيسته أو معبده دون خوف أو توجس. وقد لفت نظر ليندو تجاورُ المساجد والمعابد والكنائس في الأندلس. وممارسة أهلها لشعائرهم دون أدنى اضطهاد. وذلك عكس ما كانت الكاثوليكية تفعله في أسبانيا بأهل الديانات الأخرى، بل وبأهل الطوائف النصرانية الكاثوليكية [3].

كان المسلمون ولا يزالون يختلطون بأهل الذمة ويتزاورون. بل كانوا يتحاورون في المساجد. وبعض دور العبادة الأخرى. حول مسائل دينية

---

(١) رواه البخاري ونصه "حدثنا شعبة حدثنا عمرو بن مرة قال سمعت عبد الرحمن بن أبي ليلى قال كان سهل بن حنيف وقيس بن سعد قاعدين بالقادسية فمروا عليهما بجنازة فقاما فقيل لهما إنها من أهل الأرض أي من أهل الذمة فقالا إن النبيﷺ مرت به جنازة فقام فقيل له إنها جنازة يهودي فقال أليست نفسا"

(٢) القرضاوي. غير المسلمين في المجتمع الإسلامي. ص٥٠ دار وهبة /١٩٨٤

(3) E.H Lindo. The History of the Jews of Spain and Portu... (London. J. wertheimer and co.n.d.) p40

وغير دينية. فقد كان النصارى يترددون على مجالس الفقهاء والعلماء المسلمين يتعلمون منهم ويناقشونهم. فعلى سبيل المثال تحاور قاضي قرطبة نبيل بن أصبغ مع ابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦ هـ -١٠٦٤م) أثناء درسه بأحد مساجد قرطبة حول مسألة النعيم والعذاب الحِسِّيين في الآخرة؛ وقد ألزمه ابن حزمٍ الحجةَ في أنه يوجد في الأناجيل. وفي كتب اليهود كذلك ما يدل على الأكل والشرب. وسائر أنواع النعيم في الجنة. وكذلك بالنسبة لأهل النار[1].

وقد عرَّفنا أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم أن ابن عمه الفقيه الكبير ورائد علم مقارنة الأديان "ابن حزم الأندلسي" كان يتردد على بيت الْحَزَّان في قرطبة. وأنه كان يُكثر من قراءة كتب اليهود. وابن حزم يُعتبر من أعلم علماء المسلمين بل والعالَم بأسره، بكتب اليهود. وهو أول مَن قَدم لنا دراسة نصية فاحصة لكتب التوراة وكتب العهد القديم، قد أفاد منها من جاءوا بعده من علماء المسلمين وغير المسلمين؛ وقد بين ابن حزم في دراسته لكتب اليهود الخلل التاريخي والأخطاء الكثيرة التي دخلت عليها. وأحدثت فيها التحريف والتبديل. وقد بنى النقاد الأوربيون في العصر الحديث آراءهم في نقد التوراة على ما قاله ابن حزم في الأساس.

(١) ابن حزم في الملل والنحل (القاهرة طبعة صبيح ١٩٦٤ ج٢ ص ١٠٣/ وابن بسام الذخيرة – قسم١ ج١ ص ١٣٧.

لقد أعطى المسلمون لليهود في الأندلس. وفي غيرها من الممالك الإسلامية. الحريةَ التي حُرِمُوا منها. وأنقذوهم من الإبادة على أيدي الكاثوليك المتعصبين. وفَتَحوا لهم مدارسهم وجامعاتهم. يتعلمون فيها. حتى استطاع اليهود أن يطوروا لغتهم العبرية وآدابها. وأن تكون لهم فلسفةٌ خاصة بهم على هامش الفلسفة الإسلامية. كما فَتحت لهم دور الخلافة أبوابَها. فعملوا بها وتَرَقّوا في الوظائف حتى وصل بعضُهم إلى الوزارة. هذا في الوقت الذي لم يكن اليهود يشكلون قوة. لا اقتصادية ولا سياسية. ولم يكن لهم كذلك قوة خارجية تَحميهم. فقد كانوا مضطهدين خارج العالم الإسلامي. فعلى سبيل المثال وصل حسداي بن شبروط اليهودي إلى أعلى المناصب في بلاط الخليفة عبد الرحمن الناصر في قرطبة. كما وصل إبراهيم بن هلال إلى مكانة عالية في ظل الخلافة العباسية. وكان إبراهيم هذا حافظا للقرآن الكريم"[1].

وفي أثناء مرض أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية بمصر كان أتباع الديانات الثلاث يتجمعون للدعاء له بالشفاء[2].

وعندما ضَرب الطاعونُ مدينةَ دمشق في عام ٣٤٨ هـ ٩٥٩ م أمر الوالي اليهود والنصارى أن ينضموا إلى المسلمين في أقرب المساجد إليهم ويشتركوا معهم في الدعاء إلى الله أن يزيل خطر الطاعون عنهم[3].

---

(١) ابن أبي أصيبعة. الطبقات

2) Baron A. Social and Religious History of the Jews (New York, Columbia university press, 1960) vol. 3. P. 140

ولدينا وثيقة مهمة كتبت بخط عربي جميل،ويرجع تاريخها إلى العصر الأيوبي، في هذه الوثيقة يوصي الوالي أحد قواده قائلا: "ينبغي عليك أن تحافظ على قساوستهم، ورهبانهم، وللمنقطعين في الأديرة للعبادة منهم، وعلى زُهَّادهم ونُسَّاكهم، فلا يمسهم أي أذى، بل افعل الخير لهم ولكل من سلك سبيلهم، تجاوز عن أخطائهم، وفرج كربهم، وأزل همهم وضاعف احترامك وحمايتك لبطاركتهم ورهبانهم"[1].

وحتى اليوم يعيش النصارى جنبًا إلى جنب مع المسلمين، ينعمون جميعًا بخيرات الوطن الواحد. ويدافعون عنه معًا إذا داهمه خطر أو تعرض لهجوم خارجي.

(1) Stern, ed. Oriental, Baron, vol. 3. P.116-140, studies III, documents from Islamic chanceries (oxford (1965) p.209.
دكتورة نورشيف عبد الرحيم رفعت. ابن حزم وآراؤه في اليهود واليهودية. رسالة دكتوراه بالإنجليزية ١٩٨٦ جامعة اكستر إنجلترا.

العقائد والقيم المشتركة بين المسلمين والنصارى

ذكرنا فيما سبق أن دعوة الأنبياء جميعًا واحدة، وأنهم جميعًا جاءوا بدين التوحيد، ودَعَوْا إلى الإيمان بالله وبعبادته وحده لا شريك له، وإلى الإيمان بوجود الملائكة وبالأنبياء السابقين، وبالبعث وبالحساب والعقاب، والجنة والنار، وحَثُّوا الناس على فعل الخيرات واجتناب الشرور، والبعد عن وساوس الشيطان، وعلى التمسك بالقيم الفاضلة. يستوي الإسلام في ذلك مع المسيحية واليهودية، بغض النظر عن بعض التفاصيل التي طرأت فيما بعد على الديانة الأصلية. وهذا كله هو ما تضمنته "**كلمة سواء**" التي دعا إليها القرآن﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاء** ﴾...الآية (آل عمران: ٦٤).

يعتقد المسلمون أن عيسى بن مريم عليه السلام نبي الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، خلقه الله تعالى من أم عذراء، دون أب، وخلقه بقوة الكلمة "**كن فيكون**"، وليس هو الكلمة نفسها، كما يقول تعالى﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ . الحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ المُمْتَرِينَ**﴾ (آل عمران: ٥٩-٦٠).

يقول تعالى﴿ **إِذْ قَالَتِ المَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وجِيهاً فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ ومِنَ المُقَرَّبِينَ .**

ويُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وكَهْلاً ومِنَ الصَّالِحِينَ . قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ ولَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ . ويُعَلِّمُهُ الكِتَابَ والْحِكْمَةَ والتَّوْرَاةَ والإنجِيلَ . ورَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُم﴾...آل عمران: ٤٥-٤٩).

نلاحظ أن الآيات السابقة الخاصة بكيفية خلق عيسى عليه السلام جاءت في سورة واحدة هي سورة آل عمران، وأن الله تعالى جعلَ خَلْق عيسى عليه السلام مثل خلق آدم عليه السلام في الإعجاز، وفي التدليل على قدرته تعالى على التنويع في الخلق، وعلى إلزام الخلق بالإيمان بطلاقة القدرة الإلهية "**يخلق كيف يشاء**"؛ والله تعالى لا يَخْلُق مثلَه ﷻ لأنه لا مثيل له ولا شبيه له، وهو فوق الخلق أصلا، وفوق الزمان والمكان؛ ولذلك جعل الله مَثَلَ عيسى كمَثَل آدم؛ وفي هذا مطلق نفي الألوهية عن المسيح.عليه السلام

ونلاحظ كذلك أنه تعالى قال في الآية (٥٩) من سورة آل عمران عن مادة خلق آدم﴿ **خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ**﴾ ولم يقل تعالى (من طين) كما جاء في مواضع أخرى في القرآن (الأنعام ٢، الأعراف: ١٢، المؤمنون: ١٢، الصافات: ١١)، وذلك لأن التراب هو أبسط العناصر في المادة التي خُلق منها آدم عليه السلام وأخفها وألطفها، فهو لذلك يناسب خفة الروح التي خُلق منها عيسى عليه السلام ونظافتها وتفردها في عملية الخلق.

ونلاحظ أخيرًا أن الله تعالى يقول: "**بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ**" بعود الضمير على عيسى، ولم يقل "**اسمها**" بعَوْد الضمير على الكلمة. وهذا يؤكد ما قلناه من أن عيسى خُلق بالكلمة. وليس بتَجَسُّد الكلمة وصيرورتها بشرًا. كما يعتقد النصارى. وإلا لقال تعالى: "**بكلمة منه اسمها المسيح عيسى بن مريم.**"

وإذا ما قرأنا ما قاله لوقا في أول إنجيله (١:٣٠-٣٥) بخصوص خلق عيسى عليه السلام. ولوقا كتب إنجيله بعد رفع المسيح بعشرات السنين، نلاحظ أن الملاك جبريل قال لمريم "لا تخافي يا مريم. قد وجدت نعمة عند الله. وها أنت ستحبلين وتلدين ابنا. وتسمينه يسوع. هذا يكون عظيمًا. وابنُ العَليِّ يُدْعَى. قالت مريم للملاك كيف يكون هذا. وأنا لست أعرف رجلاً؟ فأجاب الملاك: وقال لها الروحُ القدُسُ يَحِلُّ عليك. وقُوَّة العَليِّ تُظِلُّك. فلذلك أيضا القدوسُ المولودُ منك يُدعَى ابنُ الله"

نلاحظ أن عبارتي "**وابنُ العَلِي يُدْعَى**". و"**يُدْعَى ابن الله**" جاءتا بصيغة المبني للمجهول، لتشير إلى أنَّ بعض الناس هم الذين سيَدْعُونه ابنُ الله أو ابنُ العلي. وليس هو الله تعالى؛ وإلا أخبرها الملاك بأنَّ ولدَها هو ابنُ الله. وأن الله يدعوه "ابن الله" هكذا مباشرة. ومن لطف الله بعباده أنَّه أعطى إشاراتٍ على أن المقصود بالخلق على هذا النحو، هو إثبات القدرة الربانية. ولفت الأنظار والقلوب المتحجرة إلى عالم الروح ليدخلوا من

خلالها على الله تعالى. وليؤمنوا برسله، وليرجعوا إلى شرعه الذي حَرَّفُوا بعضَه، وتَنَاسَوا أحكامَ البعض الآخر وتجاهلوها.

وفي الإصحاح نفسه يخبرنا لوقا أن الملاكَ قد أخبر مريم على سبيل تسليتها وتهدئة روعها "أن اليَصَابَات حُبْلى بابنٍ في شيخوختها؛ وهذا هو الشهر السادس لتلك المدْعُوَّة عاقر. لأنه ليس شيء غير ممكن لدى الله، فقالت مريم هو ذا أنا أَمَةُ الربِّ، ليكن لي كقولك" (لوقا: ٢٦-٣٧).

فها هو آدم عليه السلام قد خُلِق من تُراب؛ وها هي حواءُ قد خُلِقَت من جِسم آدم، أنثى من ذكر دون اتصال بأنثى؛ وها هو عيسى عليه السلام يُخْلَق من أُنثى دون اتصال بذكر. وها هو يحيى يُخلق من أبوين شيخين عقيمين. لا يُرْجى منهما الولدُ؛ لأنه بعبارة القرآن﴿ :**إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ (آل عمران: ٤٧).

وبعبارة إنجيل لوقا: "**لأنه ليس شيء غير ممكن لدى الله**"(لوقا: ٢٦-٣٧).

لقد أَعطى القرآنُ لعيسى عليه السلام أسماءً وألقاباً كثيرة. منها على سبيل المثال: عبد الله، نبي، رسول، المسيح، وجيهًا. مقربًا، مبشرًا. كلمته (أي كلمة الله الصادرة إلى مريم منه تعالى)، وروح منه... إلى آخره .

كما أثبت القرآن للمسيح المعجزات الدالة على نبوته كسائر الأنبياء؛ والمعجزة دلالة على النبوة لا دلالة على الألوهية. أعني أنها عمل الله تعالى

لتثبيت رسله، وإثبات صدقهم، فهي بمثابة قوله: "**صدق عبدي فيما يبلغ عني.**"

وإذا ما تصفحنا الأناجيل المتداولة نجد أن عيسى بن مريم عليه السلام سُمِّي فيها أيضا "بعبد الله، وبالنبي، وبالرسول، وبابن الإنسان، وبابن داوُد". فعلى سبيل المثال، جاء في الإنجيل المنسوب إلى مَتَّى "مَن يقبَلْكم يقبلني، ومن يقبلني يقبل الذي أرسلني، من يقبل نبيا باسم نبي، فأجرُ نبي يأخذ" ... فهو هنا قد حدد طبيعته وعلاقته بالله تعالى بأنه رسولٌ ونبيٌّ. وفي الإنجيل المنسوب إلى لوقا: "أن اثنين من الرجال كانا في طريقهما إلى قرية عُمْوَاس، وكان يتكلمان حول غياب المسيح، وفيما هما يتكلمان ويتحاوران اقترب إليهما يسوع نفسه، وكان يمشي معهما، ولكن أُمْسِكَت أعينُهما عن معرفته، قال لهما: ما هذا الكلام الذي تتطارحان به، وأنتما ماشيان عابسين، فأجاب أحدهما الذي اسمه كليوباس، وقال له: هل أنت متغرب وحدك في أورشليم، ولم تعلم الأمور التي حدثت فيها في هذه الأيام، فقال لهما وما هي؟ فقالا: المختصة بيسوع الناصري، الذي كان إنسانًا نبيًا مقتدرًا في الفعل والقول، أمام الله، وجميع الشعب" (٢٤: ١٣-١٩).

فهذان الشخصان كانا يتكلمان عن عيسى كنبي وليس كإله، وفي النص أن أعينَهما قد عُقِدَت فلم يريا المسيح، وهو يمشي معهما على الطريق، وفي هذا ما يفيد في تأكيد خبر القرآن الخاص بنفي الصلب عن المسيح عليه السلام ﴿**وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ**﴾ (النساء: ١٥٧).

فلماذا يقبلُ المسيحيون العقدَ على الأعينِ هنا، ويرفضون العقدَ على الأعين بالنسبة لمن خططوا للصلب؟

إن المسيح لم يصرح البتة بألوهيته أو ببنوتِه لله تعالى، بل إنه، على العكس من ذلك، صرح بأنه نبي ورسول، كما نص على عبوديته لله تعالى وحده.

ثم إن عقيدة التثليث التي لم ترد أية إشارة إليها في الأناجيل أو في كتب اليهود والنصارى بشكل عام، لم تستقر على ما هي عليه الآن حتى عام ٤٨١م، وحتى مؤتمر القسطنطينية، أما قبلَ ذلك فقد كان المسيحيون منقسمون حول تحديد طبيعة عيسى عليه السلام بحسب خلفياتهم الثقافية، وميولهم السياسية. وبحسب تأويل بعضهم لعبارات الأناجيل، ونصوص الكتاب المقدس بوجه عام؛ ولم تغب عقيدة التوحيد المطلق الذي نادى به المسيح عليه السلام أبدًا من بين النصارى حتى قررت الكنيسة أخيراً عن طريق المجامع المختلفة عقيدة التثليث كأصل للإيمان المسيحي الرسمي للنصرانية.

هذا ما أخبرنا به أرينياس وأريستكس الأثيني وأرتمون أريتماس أحد أعضاء المدرسة الملكانية في روما[1].

(١) النصرانية من وجهة نظر إسلامية وهي رسالة دكتوراه باللغة الإنجليزية جامعة اكستر – انجلترا ١٩٨٨ الباب الخاص بالتثليث

ومن الباحثين الْمُحْدَثِين يقول **فان ارسل**: "إن المسيح لم يُشِر البتة إلى نفسه بأنه ابن الله"، ويصرح بادت "إن عقيدة بنوة المسيح لله لم تؤد أي دور في عمل المسيح بين الجماهير"، ويضيف كوندلمان بأن هذا اللقب لم يرد البتة في رواية مباشرة عن المسيح نفسه، بل دائما ما يَرِد في شكل "اعتراف". وبدراسة النصوص الخاصة بعقيدة البنوة دراسة فاحصة نتبين أنها كلها لا أساس لها من الصحة. ولا يؤيدها التاريخ وبالتالي فإن عيسى عليه السلام لم يستخدم هذا التعبير (يعني ابن الله).

هذا الكلام سُقناه لسببين:

الأول: أن المسيحيين وأهلَ الذمة يعرفون أن هناك اختلافاً بينَ الأديانِ الثلاثة. أعني. الإسلام واليهودية والمسيحية. فالمسلمون لا يؤمنون بالصلب، ولا بعقيدة التثليث، ولا بالفداء، والكفارة، ويقولون بتحريف الكتب الخاصة بالديانتين. مع التسليم بصحة أصولها. وبأنها من عند الله تعالى.

وأن اليهود والنصارى لا يؤمنون البتة بمحمد. ولا يدينون بدين الإسلام الذي جاء به. ولا يُسَلِّمون بأن القرآنَ وحيٌ من عند الله، كالتوراة والإنجيل. وعلى الرغم من ذلك. فإنهم يعيشون معا يحكمهم نظام واحد ويأويهم وطن واحد. في وحدة منسجمة عنوانها﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾ [الكافرون: ٦]،﴿ **لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ** ﴾[الحج: ٦٧].

وأما **ثانيًا**: فلإظهار أن المسلمين يملكون رصيداً ضخمًا، حيًا وفاعلا، من التسامح الديني والتعايش السلمي، في مجتمع واحد مع أهل الذمة؛ وأنهم بالتالي قادرون على التحاور العقلاني مع الغرب، وعلى التعاون معه، على الرغم من الخلافات القائمة، والتي هي من صحيح منهج الله تعالى، ووفق إرادته.

﴿ولَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً ولا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ۞ إلا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ولِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود: ١١٨-١١٩)

نظرة الغربيين إلى الأديان الأخرى

كـان نصـارى الغـرب يدركـون أن في العـالم شـعوبًا أخرى لها دياناتٌ مخـتلفةٌ عن ديانتهم، فقد عرفوا اليهودية، والأمة اليهودية منذ بداية دعوة المسيح ﷺ. فقد أُرسِلَ المسيحُ إليهم، واقتصر عمله عليهم.

وقد عرف الغربيون الإسلامَ كذلك على إثر انتشاره في الجزيرة العربية، فلقـد استقبل الرسول الكريم ﷺ وفدًا من نصارى نجران، ودخل معهم في حوارٍ. كما أرسل ببعوثه ورسائله إلى قادة العالم وملوكهم آنذاك، يُعَرِّفهم فـيها بالإسـلام، وبأنه رسولُ ربِّ العالمين، وكذلك من خلال غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة.

وعَـرَف نصارى الغربِ الدياناتِ الهنديةَ– الهندوسية والبوذية – ولكنه عـلى مـدار التاريخ ظلت معرفةُ الغرب بالديانات الأخرى ضيقةً ومحدودةً، كما أنها كانت وليدة العزلة التي يعيشها الغرب[1].

كانـت معـارف الغربـيين عـن الإسلام يسودها الجهل والعداء، وكانت الترجمـات القرآنـية وكذلـك الكتب والرسائل التي ظهرت في المراحل الأولى للاتصـال بين الإسـلام والغرب، والتي قد تحدثت عن الإسـلام، كانت مليئةً بأخطاء وأضاليل وافتراءات لا حصر لها، فإبان القرون الوسطى، وفي الفترة الأولى من عصر التنوير في أوروبا قد سيطر على عقول الناس هناك، الاعتقادُ بـأن الإسـلام بدعـةٌ شـيطانية، وبأن محمدا كذاب، عدو للإنسانية، يحب

(١) ـ تمهيد الواجب الحواري أو المطلب الحواري بالإنجليزية ص ٥ وما بعدها

الانتقام، ويفرض دينه على الناس بالسيف، وبأنه رجلٌ شهوانيٌ، وأنه مصابٌ بالصرع، وأنه لفق القرآنَ من كتب اليهود والنصارى، وبأنه كان عميلا للشيطان، إلى غير ذلك من افتراءات؛ هذه الأفكار وغيرها، والتي ركزت على الإسلام كدينٍ، كانت مصبوغة أيضاً بموقف سياسي من الإسلام، وقد استفحل هذا الموقف السياسي الأيدلوجي بمرور الزمن حتى سيطر على العقلية الغربية، وربما قَوَّى من هذا الموقف العدائي شدة الجوار الجغرافي، والتَّماس المباشر بين العالم الإسلامي والعالم الغربي.

وحتى بعد أن توسع الغرب في الاستعمار وعاش بين شعوب ذات ديانات خاصة، وثقافات متعددة، وحتى بعد أن أصبحت المجتمعات الغربية متعددة الجنسيات والديانات، لم يزل الشعورُ بالعزلة يسيطر على عقول الغربيين بدرجاتٍ متفاوتة. ولا تزال نظرة الغربي إلى الغير مصبوغةً بالتعالي والتميز، وأنه حتى عام ١٨٦٠م، حيث عُقِد أول وأكبر مؤتمر في مدينة ليفربول ببريطانيا للمنصرين في العصر الحديث، والذي مَثَّلت فيه جميعُ الطوائف والكنائس المسيحية تقريبًا؛ وفي هذا المؤتمر لم ترد أية إشارة أساسًا حول الديانات المحلية للشعوب التي كان المنَصِّرون يعملون في أوساطهم[1].

(1) Stephen Neil. Christian fiallxs ad other faiths: the Christian dialogue with other religions. London oxford 1961 p1

وفي العام نفسه ١٨٦٠م نَشر أحدُ رجال الدين المسيحي بانجلترا كتابًا بعنوان(The Faith Of The World) ، وفيه قَسَّم الكاتبُ الأديانَ إلى أربعة أنواع:

١- ديانات وثنية، وتشمل الديانات القديمة كديانات الإغريق والرومان.

٢- ديانات معاصرة، وتشمل الهندوسية والبوذية واليهودية، وهنا يعلق الكاتب بقوله: "إن كثيرًا من التغييرات أو التعديلات، والتي كثيرًا ما تكون غريبة، قد لَقّح أو هَجّن بها الأحبارُ النسخة الأصلية لكتب العهد القديم".

٣- الديانة المحمدية (يعني الإسلام) وهي أكبر ديانة شرقية زائفة قائمة على الإفك...انتحلها محمدٌ من اليهودية الحاخامية أو التلمودية، ومن النصرانية المشوهة البعيدة عن صحيح الاعتقاد. لقد نقح محمدٌ هذه الأقوال المنتحلة بذكاء بحيث تبدو وكأنها مكونٌ واحدٌ ونسيجٌ متصلٌ.

٤- والمسيحية، ويعتبرها الكاتب، وحدها، الديانةَ المستمدة من الله. وهي لسُمُوِّها لا تُصنف مع أي ديانة أخرى، بل تبقى منفردة، لأنها دون سائر الديانات هي التي صدرت عن الإلهام الإلهي .

ويستطرد فيقول "إن دين الله واحد، ولكن الأديان التي اخترعها الإنسان كثيرة".

وبناء على هذا التصور فإن النصارى هم الذين يمتلكون الحقيقة وحدهم، وإن سائر الأمم إنما ينتظرون بجهلٍ أن يسمعوا كلمة الحق، وأن يعرفوا المسيح الإله المتجسد الذي لا يمكن لأحدٍ أن يصل إلى الحقيقة إلا من خلاله فقط.

ومن الأدلة الصارخة على العنصرية الدينية والانكفاء الديني على الذات، ما ساقه المكتشف البرتغالي مارتن دي إنسيسكو وهو كاثوليكي روماني؛ كتب هذا الرجل إعلانًا سماه "زيجر ريجنر يمنتو"،وكان هذا المكتشف يقرأ هذا الإعلان على الهنود الحمر السكان الأصليين لأمريكا، والذي كان يرغب في تنصيرهم، وقد احتوى هذا المنفستو (الإعلان. أو البيان) باللغة الأسبانية أو اللاتينية. على تعريفٍ مختصر لتاريخ العالم منذ بدء الخليقة إلى وقت ظهور المسيح، كما احتوى على بعض المعلومات عن البابوية، وعن تعاليم الإنجيل مشفوعًا بتخويل من البابا ألكسندر السادس موجهًا إلى ملك أسبانيا يأمره فيه بتسليمه جُدُر وتُخُوم معينة، وقد طلب أيضاً إلى الهنود الحمر الاعتراف بالكنيسة، وبسلطة البابا على العالم، وأن ملك أسبانيا يحل محل البابا؛ وكانت نتيجة رفض الهنود للإنجيل أنَّهُم ضُرِب عليهم الرِّق فصاروا عبيدًا. واعْتبِرُوا وثنيين بالإرادة[1].

وفي رواية هنري فبلدنج توم جوتز أعلن الكاهنُ البروتستاني تواكم قائلاً: "عندما أذكرُ الدِّين فإنني أعني الديانة المسيحية فقط، وعندما أقول

(1) Gravin D'dosta: Faith Meats Faith, London Bfss Re cetr 1988pp1,8 ff

المسيحية فإنني أعني المسيحية البروتستانتينية فقط. وعندما أقول البروتستانتينية فإنني أعني الكنيسة الإنجليزية فقط وعلى وجه التحديد."

هذا الكلام لا يعني تعصب المسيحيين لدينهم فقط، وإنما يعكس أيضًا النزعة الطائفية الحادة داخل المجتمعات النصرانية تلك النزعة التي تحولت إلى نزاعات مسلحة وعصبيات مدمرة بين الطوائف المسيحية.

ولا يفوتنا أن نسلط الضوء على نقطتين مهمتين، وهما:

١- أن المفهوم التنصيري، بالبعد الذي طرحناه، كان دائمًا مُدعمًا بعقيدة أيديولوجية صَوَّرت الدياناتِ غير المسيحية، والمجتمعات غير الغربية بأنها أقل ثقافيًا وحضارياً من المجتمعات الغربية.

وبعد أن فَصَلت أوروبا الدِّينَ عن الدولة، وقلَّصت دورَ الكنيسة، وقويت شوكة العلمانية بظهور الدولة المدنية في الغرب، تعرض الدينُ للهجوم العنيف، وصَوَّب العلمانيون ضرباتِهم المُحْكَمَةَ ضد المعتقدات الدينية، وضد القيم الروحية، فَرَوَّجُوا أن الدين لا شأن له بالأمور الدنيوية، وإنما هو عَلاقة خاصة بين الإنسان وربه، هذا ولم تترك العلمانية أية مساحة خارج حياة الفرد الخاصة للدين، أن يقوم به في الحياة العامة.

لقد صُوِّر الدينُ على أنه من وضع البشر، وعلى أنه أفيون الشعوب، وأنه علامةٌ على الجهل والانحطاط والتأخر. واعتبره بعضُهم بأنه مرضٌ خطير يهدد سلامة البشرية وأمنها، وأنه لذلك يجب التخلص منه، [illegible] الانسان من سيطرته عليه.

وجاءت العلمانية بقيمٍ ماديةٍ جديدةٍ أُلبستها ثوب العلم، وجعلتها من ضرورات العصر؛ ومن مُسَلَّمات شروط النهضة والتقدم، وفي سبيل الترويج لذلك استغلت المنجزات العلمية والتكنولوجية الهائلة التي وصلت إليها البشرية في تدعيم حملتها ضد القيم الدينية؛ لا سيما القيم الأسرية، هذا – ولم يكن شعور الغربيين بالتفوق الثقافي والأخلاقي والديني على سائر البشر في عصر العلمانية، بأقل منه في عصر ما يمكن أن أسميه بـ"**اللاهو-أيديولوجي**" (أي اللاهوت والأيديولوجية معًا).

إلا أن هذا الشعور بالتفوق لم يلبث أن تآكل بسبب الحربيين العالميتين، وانتهاء عصر الإمبراطوريات الاستعمارية في أوروبا؛ وبالتالي فقد ظهر تهافتُ المزاعمِ الغربية. وتَخَلخَلَ مصداقية ما كان الغرب يعتقده، من أن سائر الديانات والثقافات والعادات غير الغربية تعتبر عوالم للجهل أو بؤر للتخلف. وربما كان كارل بارث هو أولُ من لاحظ ذلك، أعني عدم صحة المزاعم الغربية في التفوق الديني واللاهوتي والأخلاقي والثقافي على سائر الشعوب الأخرى؛ والذي هزت الثقةَ فيه ما مُنِي به الغربُ على أثر الحرب العالمية؛ وعلى الرغم من ذلك فإن بارث لم يعط اهتمامًا ذا بال للأديان غير المسيحية وهو يكتب عن الحالة الدينية لأوروبا.

غير أن هذا الشعور بالتفوق عاد يظهر من جديد تبعًا للتقدم العلمي، الذي أحرزه الغرب للثروة الكثيرة التي يمتلكها، في مقابل الفقر الشديد، والتخلف الذي باء به العالم الثالث؛ ولقد تطور هذا الشعور بالتفوق في

شكل العولمة التي يريد الغرب، بزعامة الولايات المتحدة، فَرضَها على سائر الشعوب الموجودة في العالم؛ وللترويج لأفكارٍ مثل نهاية التاريخ، وصراع الحضارات .

وإنه حتى اليوم مازال الإسلام يُهَاجَمُ من الغربيين من مختلف المواقع والاتجاهات، ولا زال هذا الدينُ يُعْرَض عَرْضًا أقربَ إلى السلبية والتنقيص في الدراسات الاستشراقية. ولا يزال الإسلام يُصَوَّر في أجهزة الإعلام الغربية وفي الأشكال الأدبية المختلفة على أنه خطرٌ مدمرٌ ينبغي التصدي له، ففي ١٨ أغسطس ١٩٨٠م نَشَر ينبول حديثا في مجلة نيوزويك انترناشونال بمناسبة كتابٍ يقوم بإعداده للنشر. ومما جاء في حديثه : "إن المبادئ الأساسية في الإسلام تفتقر إلى المضمون الفكري. ولذلك فلابد أن ينهار"[1].

وعلى الجانب الآخر فإن المسلمين يرون أن الإسلام هو الأصلح لتنظيم شئون العالم، وأن الحضارة الغربية هي التي تعاني بسبب فقر الجانب الروحي فيها، وفقدان الأيديولوجية التي يمكن أن تحافظ على بقائها واستمرارها. وهذا ما يعلن به كثير من المصلحين في الغرب.

وعلى الرغم من هذا التيار العام المناهض للإسلام في الغرب فإن هناك بعض علماء الغرب ومؤرخيهم وفلاسفتهم قد اطلعوا على حياة محمد ﷺ فأنصفوه، وأبدَوا إعجابهم الشديد به كنَبيٍ وكإنسان؛ وإذا كنا لا نستطيع

(١) [illegible] الإسلام الأصولي ص ٣٧

أن نُسهب في نقل أقوال هؤلاء المنصفين، فإننا هنا نكتفي بتقديم بعض الأمثلة من أقواهم التي يمكن أن يستدل من خلالها على البعض الآخر.

فعلى سبيل المثال فإن الكاتب الإنجليزي المشهور برنارد شو رأى في رسول الله ﷺ كلَّ مؤهلات الزعامة حيث يقول: "إنني أعتقد أن رجلا كمحمد لو تَسلَّم زمام الحكم المطلق في العالم بأجمعه اليوم لتم له النجاح في حكمه، ولَقَاد العالم إلى الخير، وحَلّ مشكلاته على وجهٍ يحقق للعالم كله السلام والسعادة المنشودة"، ويستطرد قائلا: "إن أوروبا الآن بدأت تعشق دينه، كما أنها ساعية إلى تبرئة دينه مما اتهمته به من أراجيف رجال أوروبا في العصور الوسطى؛ وسيكون دين محمد هو النظام الذي يؤسس عليه دعائم السلام والسعادة. ويستند في حل المعضلات وفك المشكلات والعقد... إن كثيرين من مواطنيَّ (يعني الإنجليز) ومن الأوروبيين الآخرين يقدسون تعاليم الإسلام، ولذلك يمكنني أن أؤكد نبوءتي فأقول **إن بوادر العصر الإسلامي الأوروبي قريبة لا محالة.**"

وقد صدَّق على نبوءة برناردشو هذه الكاتبُ الألماني صاحبُ كتاب "**الإسلام قوة الغد العالمية**"، وكذلك غيره من علماء أوروبا وفلاسفتها.

وبالفعل فإنه قد دخل الإسلام عدد من كبار الشخصيات العلمية والقيادات الفكرية في الغرب؛ إلا أنه نظراً لاعتبارات نَعْرِفها عاد بعض الغربيين يبدون تخوفهم من الإسلام. وعاد بعض المغرضين يصورون الإسلام

بأنه الخطر الذي يستهدف إزالة شأفة الغرب؛ وهذه مجرد ترهات وافتراءات لا أساس لها من الصحة.

ويرى الأديب الفرنسي وولتر أن الإسلام هو دين السماحة؛ وأن الإسلام قد بلغ أقواماً لم يكن له أدنى سلطة عليهم. فأثر فيهم واستولى على حياتهم؛ ويقول كذلك "إن خطباء الغرب وكتابه الذين ملؤا عقول شعوبهم بالأكاذيب حول الإسلام وصوروه بأبشع صور القسوة."

كما أُعجب السير فلكد الأمريكي بحكمة رسول الله ﷺ وبمساواته بين البشر، حيث يقول: "كان عقل محمد النبي من العقول الكبيرة التي قلما يجود بها الزمان؛ فقد كان يدرك الأمر ويدرك كنهه من مجرد النظرة البسيطة. وإن انتصارات محمد الباهرة لم تثر في نفسه أي شعورٍ بالعظمة. بل ظل متواضعاً طول حياته، ولم يخرج البتة عن إطار القيم التي كان يدعو إليها". وأُعجب السير فلكد أيضاً بتواضع رسول الله ﷺ وإيثاره للعدل، وإيثاره كذلك لصالح العباد، وبتضحياته العظيمة، وتجرده التام لمبادئ دعوته السامية، فإنه لم يكن يسعى إلى منفعة دنيوية من وراء الدعوة التي جاء بها. وضحى في سبيلها بكل ما يملك من جهدٍ ومن مال.

وأعجب بعضُهم كما روى توماس أرنولد في كتاب "**الدعوة الإسلامية**" بموقف الإسلام من الخمر. إذ حرمها تحريماً قاطعاً لمصلحة الإنسان، حيث قال "إنه في مؤتمر عقد في بلجيكا في القرن التاسع عشر أثبتت دراسة بأن نسبة الوَفَيَات قد زادت في البلاد الباردة، نظراً لأنهم كانوا يتعاطو

الخمور، للتغلب على الشعور بالبرد؛ فكانوا يستنفذون حرارة أجسامهم بما يتعاطون من الخمر مما كان يُعَجِّل بوفاتهم."

وقال بعضهم: "إن محمداً ﷺ كان أول من وحَّد بين القبائل العربية بالجزيرة ... وجمع كلمتها تحت رايةٍ واحدة؛ وقد كان ظهور محمد في الوقت الذي كان العالم في أشد الحاجة إليه، فجاء فجمع الكلمة لا بالقوة والشدة؛ بل بكلامٍ عَذْب أخذ منهم كلَّ مَأْخذ، فاتَّبعوه، وصَدَّقوه؛ وقد فاق فتىَ مكةَ غيرَه من الرسل والقادة من الرجال بصفات لم تكن معروفة لديهم، فكان يجمع بين القلوب المتفرقة، فتشعر كلها بشعور قلب واحد."

ويقول بارتلمي سنت هيلر عن الدين الذي جاء به محمد" :ﷺ إننا نعد دينه الذي دعا الناس إلى اعتقاده جزيل النعم على جميع الشعوب التي اعتنقته."

وقد أعرب الكاتبان توراندیه وجورج مارسيه في كتابهما "العالم الشرقي" عن إعجابهما الشديد برسول الله ﷺ الذي يقولان عنه "إنه قد جمع إلى الشجاعةِ الفائقةِ، الرحمةَ البالغة ، والعطف الشديد على الضعاف والأيتام. والتبسط معهم، مع الاحتفاظ في الوقت نفسه بالهيبة الكاملة ... مما جعله يصنع من العرب قوةً. قُدِّر لها فيما بعد أن تَهُزّ أركانَ العالم القديم ... تلك القوة التي بُنِيَت على الأخلاق والْمُثُل الرفيعة، والمبادئ الصافية."

ويقول جان جاك روسو: "إنّ مَنْ تعلم العربية، ثم قرأ القرآن، ولو أنه سمع من محمد وهو يمليه على الناس ... لَخَرّ ساجداً على الأرض، وناداه "أيها النبي رسول الله! خذ بيدنا إلى مواقف الشرف والافتخار، أو إلى مواقع التهلكة والأخطار. فنحن من أجلك نود الموت أو الانتصار."

هذه رؤية شعرية لرسول الله ﷺ أملتها الحماسة لتقدير شخصية العظمة، وإلا فرسول الله ﷺ لا يقود إلى التهلكة، بل إلى النجاة، وإلى الفوز بنعيم الحاضر، ونعيم الأبد .

وقال أحدهم: "لو لم يكن لمحمد معجزة إلا أنه صنع أمةً من البدو، فجعلها أمة كبرى في التاريخ، لكنه معجزة في العالمين."

وقد ألقى الفيلسوف الإنجليزي توماس كارلايل محاضرة عن محمد ﷺ في كبرى قاعات إنجلترا، وقد ضَمّنها فيما بعد كتابه "**الأبطال وعبادة البطولة**". فقد أثنى كارلايل فى تلك المحاضرة على رسول الله ﷺ أيّما ثناء، وكان صوته آنذاك أشبه بصوت صارخٍ في البرية: "لقد أصبح من أكبر العار على كل فرد متمدن من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى ما يدّعيه الْمُدَّعُون من أن دين الإسلام كذب، وأن محمداً خدّاعٌ مزور، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فإن الرسالة التي أدّاها ذلك الرسول، ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذي خلقنا ... أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر

والإحصاء، أُكذوبة وخدعة؟ .. هل رأيتم قط معشر الناس، أنّ رجلا كاذباً يستطيع أن يوجد ديناً وينشره؟ .. عجبٌ والله! إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبني بيتاً من الطوب .. وعلى ذلك فلسنا نعد محمداً قط رجلا كاذباً متصنعاً يتذرع بالحيل والوسائل إلى بغيته، أو يطمح إلى درجة ملِك، أو غير ذلك من الحقائر والصغائر؛ وما كانت الرسالة التي أداها إلا حقاً صريحاً، وما كانت كلمته إلا صوتاً صادقاً صادراً من العالم المجهول (يعني الغيب)؛ كلا ما محمدٌ بالكاذب، ولا الملفق؛ وإنما هو قطعة من الحياة قد تَفطَّر عنها قلب الطبيعة، فإذا هو شهابٌ قد أضاء العالم أجمع. ذلك أمر الله."

كما أبدى كارلايل إعجابه كذلك بحكمة رسول اللهﷺ، وبرسوخه في المبدأ، وبهمته العالية وبره وتقواه، وقال لبني قومه: "إن محمداً لم يكن عنده طمع في الحياة، ولم يكن يتطلع إلى تاجٍ قيصر، أو صولجان كسرى، وجميع ما في الأرض من تيجان أو صوالج، فإنه أكبر من ذلك. إن محمدا لم ينشر دينه بالسيف، كما يزعم الغربيون الذين اتخذوا من ذلك دليلا على كذبه، ولا شَدّ ما أخطأوا وجاروا؛ إنهم يقولون ما كان الدين ينتشر لولا السيف، ولكن ماذا أوجد السيف؟ .. هو قوة هذا الدين فإنه حق .. أولم يروا أن المسيحية لا تأنف أن تستخدم السيف أحياناً! وحسبكم ما فعل شارلمان بقبائل الساكسون .. .. فحبّذا محمد مِن نَبيٍّ خَشِن اللباس، خشن الطعام، مجتهد في الليل، قائم النهار، ساهر الليل، دائب في نشر

دين الله. غير طامح إلى ما يطمح إليه أصاغر الرجال من رتبة، أو دولة، أو سلطان؛ وهو بحقٍ النبيُّ ذو الخلق العظيم."

وقال أدمونت بيرك: "إن التشريعات التي جاء بها محمد لم يكن لها مثيل في العالم". كما رأى فِنلي في رسول الله ﷺ رجلاً خارقاً قد كُوِّن من مزيج من كفايات ممتازة."

ودخل اللورد هيدلي الإسلام من باب الإعجاب بمحمد ﷺ الداعية إلى الرحمة والعدل، وسائر مكارم الأخلاق، وقدم اللورد هيدلي، وهو إنجليزي، خدماتٍ جليلة للإسلام، وله أقوالٌ عظيمةٌ في وصف شخصية النبي ﷺ.

وقد أثنت الكاتبة الأمريكية هيلين ستنسبري على المجتمع المسلم القائم على القيم الإسلامية العظيمة التي جاء بها محمدٌ ﷺ.

كما وضع مايكل هارت رسول الله ﷺ على رأس مائة شخصية عظيمة اختارها من بين عظماء العالم.

وبهذا يتضح أن نظرة الغرب للإسلام ليست سلبية دائما، وأن الغربيين ليسوا على رأي واحد بالنسبة للإسلام. فقد كان منهم من قدر الرسول ﷺ وأثنى على الإسلام. ورأى فيه التشريعات السامية. و القيم الفاضلة. وذلك بخلاف ما كان يروج ضده في الغرب.

ومن ثم فإنه يمكننا أن نفيد من تلك الآراء التي تتسم بالإنصاف في جملتها في بناء جسورٍ من الثقة. ومجالات للتفاهم والتعاون بين المسلمين والغربيين.

الخـاتمة

في هـذا البحـث استعرضنا موقف الإسلام من أهل الذمة، والمبادئَ التي قـررها في الـتعامل مـع غـير المسـلمين، والـتي تقوم على التسامح والتعايش السلمي، وقبول الآخر، في الإطار العام للمجتمع المسلم؛ وبيَّنَّا كذلك أن غير المسلمين قد تمتعوا بالحرية الدينية، وشاركوا مشاركةَ كاملةَ وفعالة في إدارة شـئون المجـتمع؛ وأوضـحنا كذلـك أن الإسـلام قـد قـررَ لهـم حقوقاً كاملة صـائنتها بقـوة تعالـيم القـرآن والسـنة؛ وفي سبيل ذلك حَرَّم الإسلامُ تحريماً قاطعـاَ عـدمَ الْمَسـاسِ بِحُـرِّياتهم أو التعدي عليهم بأي شكل من الأشكال، كمـا أوصى بضرورة التعامل معهم ومودتهم ما لم يكونوا محاربين، وأنه مما تمـيز بـه الإسلامُ أن شرَع لغير المسلمين تشريعاتٍ خاصةً للحفاظ عليهم مع إعطـائهم الحـق في اللجوء إلى مجامعهم وكنائسهم ومحاكمهم الخاصة، فيما يتصل بشئونهم الدينية البحتة، دون تدخلٍ من قبل المسلمين .

وفي هـذا البحـث قـد بينا أيضا موقفَ الإسلامِ من الأقلياتِ، ومن جـهةٍ أخـرى بَيَّـنَّا نظـرةَ الغربـيين إلى أهـل الأديان، والثقافات الأخرى، ومدى الاضـطهاد الـذي عانـاه غـيرُ المسـلمين في المجـتمع المسيحي؛ وعلينا نحن كعـلماءِ ديـنٍ، وأسـاتذة جامعـات أن نعمـل عـلى الوفاق بين أهل الأديان، وإعـادة بـناء الـثقة بيـنهم، وفـتح سبلٍ جديدةٍ للتفاهم والتعاون على أساس احـترام الحـريات والخصوصيات والهويات، وأن ننمي ما بدأنا فيه بالفعل مـن لقـاءات ومؤتمـرات الحـوار الديـني والـثقافي، حـتى نساعد على تنقية

الأجواء، وإزالة التوتر الذي ينتاب العالَم، أو على الأقل التخفيف من حدته. وعلينا قبل كل شيء أن نحافظ على القيم الدينية والمعطيات الروحية التي عاش الإنسان بفضلها آمناً مطمئنا، وألا نترك الزمامَ للعلم المادي، والفكر الإلحادي أن يَطغى على ما أنتجه الإنسان من حضارةٍ عبر القرون.

إن حضارتنا اليوم ليست مقدسةً، ولا هي إيجابية في كل جوانبها، وعلينا أن نختار منها ما يوافقنا ويصلح لنا ماديًا وروحيًا.

والله سبحانه وتعالى هو الموفق للصواب والهادي إلى الرشاد!